المحاضرة الأولى: مفهوم أشكال التعبير وعلاقتها بالانثروبولوجيا

مدخل

غالبا ما تتميز التعابير ذات الطابع الشعبي (الشفهية) بخاصية القدرة على الانتشار الكبير والواسع وفي ظرف وجيز، ذلك بسبب قدرتها على التغلغل في أغوار الشخصية الشعبية، والأهم من ذلك أنها الوسيلة التعبيرية بلغة الحياة اليومية (اللغة الممارسة) التي تحظى بالعناية والاستخدام لدى القاعدة الاجتماعية، خاصة في ظل الاستعمالات الكثيرة لوسائل التواصل الاجتماعي والانفتاح الإعلامي ذو الطابع المعاصر. أو بأي وسيلة أخرى من أشكال التعبير كالرقص والغناء وإلقاء الشعر والأمثال والحكم، أو سرد القصص والروايات وتداول الحكايا والأساطير التي تشكل الهوية الشعبية للجماعة والضمير الجمعي المشترك.

يقول حسني ابراهيم عبد العظيم: تعجز الكلمات المكتوبة أو المنطوقة – في أحيان كثيرة – عن الإحاطة بالأحداث والمواقف والتجارب الممزوجة بحِمل كثيف من العواطف والمشاعر الإنسانية، وتمثل الكتابة العلمية الاجتماعية نموذجًا على ذلك، إذ أنها أقل قدرة على استيعاب تلك الأحداث والتجارب من الأدوات الفنية والأدبية؛ ولذلك يناضل علماء الأنثروبولوجيا باستمرار من أجل تطويع اللغة لفهم وتمثل تعقيدات الحياة الاجتماعية في المجتمع الإنساني(https://mana.net/anthropology-of-dance).

هذا ما يضطر الإنسان إلى استخدام وسائل وأساليب تكون أكثر نجاعة في التعبير عن المشاعر الإنسانية والخبرات الوجدانية والتجارب الاجتماعية العميقة، هي كل إبداعات الإنسان كتابيا أو شفهيا أو جسديا. إنها الفنون بمختلف تجلياتها: التعبير الكتابي من قصص وروايات وكتب ومقالات...، أو التعابير الشفهية من نكت وأهازيج وأغاني...، أو من خلال استخدام جسده في إخراج مكنوناته الموسيقى، الرسم، النحت، الرقص. . .إلخ، هذه المخرجات وبكل أنواعها سمتها أنها تتداخل وتتشابك مع كل العمليات الاجتماعية، وتتبادل معها المعاني والرؤى والدلالات.

تعريف أشكال التعبير وعلاقتها بالأنثروبولوجيا:

تعتبر أشكال التعبير من مظاهر التواصل الإنساني من خلال الاعتماد على النص (تتعدد الحوامل) أو اللغة التي تتضمن النص، وطوال التاريخ استعمل الإنسان أشكالا مختلفة من التعابير لإيصال مجموعة من الخواطر

والأفكار والعواطف. تشمل أشكال التعبير كل ما أنتجه المبدعون والفنانون في الكتابة بكل تفرعاتها القصصية والروائية والصحفية، والموسيقى والغناء والمسرح والرقص والحكاية والنكتة وغيرها من العديد من أشكال التعبير.

لكن الكثير يعتبر اللغة المحكية والكتابة هما من أهم أشكال التعبير الإنساني (تبادل المعارف والخبرات والتجارب_ عكس المشاعر والعواطف)، ومن الناحية النظرية الأشكال الشفوية أكثر عامية أما الأشكال التعبيرية المكتوبة هي أكثر رسمية.

كما يقصد بأشكال التعبير كل التعابير التي يصوغها المبدعون في كل الجوانب الحياتية تحت أي غاية أو أي مقصد (تعليمي، تربوي، ترفيهي، فني، فكاهي، سياسي، ديني...)، فإنتاج هذا النص يتطلب شروطا تتعدى السطحية في معرفة الواقع لتصل إلى كنه المجتمع، وتتغلغل في نفسية الأفراد لتصل الرسالة وتحقق غرضها الظاهر والخفي.

وكمثال على شكل من أشكال التعبير نذكر هنا النكتة، باعتبارها أحد أهم أنواع الفكاهة وأكثرها شيوعا: "النكتة هي تعبير عن رغبة وتنفيس عن شعور مكبوت، وتفريغ انفعالي بخصوص مسألة استعصى على الذات حلها"، فهي موقف ورأي ساخر تجاه موضوع ما، تريد نقله للآخرين وإحساسهم به. من أجل معرفته وكشف كنهه وما يحتويه من عيوب ومفارقات اجتماعية، سياسية، نفسية ودينية في ثوب لغوي خفيف ترفيهي وفكاهي"(محمد سعيدي، مقدمة في الانثروبولوجيا، ص 87).

بتعدد الذوات تتعدد المشاغل والاهتمامات والأفكار والأحاسيس التي تسكن الذات وتريد الإفصاح عنها... في بؤس وفرح واهتمام وما سوى ذلك، ولكن الثابت في كل ذلك هو أنه كلما امتلأت النفس بشيء بحثت لها عن شريك لانشاء جسر تواصل وتفاعل، وتبقى الفروق كبيرة بين حرية التعبير وكبته، وما بين هذا وذاك تنتج العديد من صيغ وحيل للتعبير والتواصل.

وما يهمنا في كل أشكال التعبير هو علاقتها بالأنثروبولوجيا، ولماذا تهتم الأنثروبولوجيا بأشكال التعبير الانساني؟

باعتبار الأنثروبولوجيا موضوعها هو الإنسان فيجب أن تسلط الضوء على كل ماله صلة به، عاداته تقاليده ارثه الثقافي منتجاته المادية واللامادية، وكما قلنا سابقا التعابير هي انتاج انساني محض، وهي تمثل بكل أشكالها في المخزون الثقافي المجتمعي، إحدى أهم الركائز لفهم المجتمعات والجماعات الإنسانية. فمن جهة يمكن اعتبارها مرآة صادقة لما تحمله من قيم ومعتقدات وممارسات وسلوكات... ومن جهة أخرى تكشف لنا بطريقة

مباشرة أو غير مباشرة عن الجوانب الخفية في المجتمع سواء كانت في شكل مواقف أو تطلعات أو رغبات مكبوتة، كما أنها تعكس معيار التقبل أو الرفض لتلك المضامين وطريقة التعاطي معها.

في الختام يمكننا القول أن مختلف أشكال التعبير تتشكل ضمن هوية (محلية) وبيئة وفترة زمنية معينة، أي أنها تخضع للزمان والمكان. لتعكس الجوانب المهمة من الحياة الاجتماعية والدينية والثقافية والفكرية و... من خلال مجموعة من الأساليب والسلوكات وما تتضمنه من طقوس ومعتقدات وتقاليد، بإيجابياتها وسلبياتها وتناقضاتها المختلفة. والأهم من ذلك أنها غالبا ما تتسم بالعفوية الحاملة لكل الآمال والتأملات والتجارب والدروس.